- مَكْرمة*

حدّث عمرو بن العلاء فقال :

جلس النعمانُ بن المنذر وعليه حُلّةٌ مرصّعةٌ بالدرّ ، لم يُرَ مثلُها قبل ذلك اليوم . وأَذِنَ للعرب فى الدخول عليه ، وكان فيهم أوسُ بن حارثة[1] ، فجعلت العرب تنظرُ إلى الحُلّةِ ، وكلٌّ منهم يقول لصاحبه : مارأيتُ مثلَ هذه الحلّة قطّ، ولاسمعت أن أحداً من الملوك قدَر على مثلها ـ وأوسُ بن حارثة مُطْرِق لا ينظر إليها ـ فقال له النعمان : ما أرى كلَّ مَنْ دخل علىّ إلا استَحْسَن هـذه الحلّة ، وتحدَّثَ مع صاحبه فى أمرها إلا أنت ؛ مارأيتُك استحسنتها ولا نظرتَها .

قال أوس : أسعد الله الملك ! إنما تُستَحْسن الحلّة إذا كانت فى يد التاجر ، وأما إذا كانت على الملك ، وأشرق فيها وجهُهُ فنَظَرِى مقصور عليه لا عليها ! فاسترجح عقلَه .

فلما عزموا على الانصراف قال لهم النعمانُ : اجتمعوا إلىّ فى غد فإنى مُلْبِسٌ هذه الحلّة لسيد العرب منكم ، فانصرف العربُ عنه ، وكلٌّ يزعم أنه لابس الحلة .

فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس ، وتقلّدوا بأحسن السيوف ، وركبوا أجودَ الخيل ، وحضروا إلى النعمان ؛ وتأخر عنـــه أوسُ بن حارثة ؛ فقال له أصحابه : مالك لا تَغْدُو مع النـاس إلى مجلس الملك ، فلعلك تـكونُ صاحبَ الحُلة . فقال أوس : إن كنتُ سيد قومى فما أنا بسيِّد العرب عند نفسى ، وإن حضرتُ ولم آخذها انصرفتُ منقوصاً ، وإن كنتُ المطلوبَ لها فسيُعْرَفُ مكانى، فأمسكوا عنه .

---

* المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط .

(١) أوس بن حارثة : من أجداد العرب فى الجاهلية ، بنوه بطن من بنى مزيقياء ، وهم إحدى قبيلتى الأوس والخزرج ، أصلهم من اليمن ، ونزلوا يثرب وجاء الإسلام وهم بها.

ونظر النعمانُ فى وُجُوهِ القوم ،فلم يَرَ أَوْس بن حارثة ؛ فاستدعى بعضَ خاصته ، وقال : اذهب نتعرفَ خبر أوس ، فمضى رسولُ النعمان ، واستخبر بعض أصحابه ؛ فأخبره بمقالته ، فعاد إلى النعمان ؛ فأخبره بذلك ، فبعث النعمانُ إليه رسولًا ، وقال احضُر آمناً مما خِفْتَ عليه ، فحضر أوس بثيابه التى حضر بها بالأمس ، وكانت العربُ قد استبشرت بتأخره خوفاً من أن يكون هو الآخذَ للحُلة .

فلما حضر وأخذ مجلسه ، قال النعمان : إنى لم أرك غيّرتَ ثيابَك فى يومك ؛ فالبس هذه الحلة لتتجمل بها ، ثم خَلَعَها وألبسه إياها . فاشتدّ ذلك على العرب وحسدوه ؛ وقالوا : لا حِيلةَ لنا فيها ؛ إلا أنْ نرغَبَ إلى الشعراء أن يهجوه بقبيح الفعل ؛ فإنه لا يخفض رفعته إلا الشعر . فجمعوا فيما بينهم خمسمائة ناقة ، وأتوا بها إلى رجلٍ يقال له جَرْوَل[1] ، وقالوا له : خذ هذه ، واهْجُ لنا أوس بن حارثة .

وكان جَرْوَل يومئذ أشعر العرب وأقواهم هجاء ، فقال لهم : ياقوم ؛ كيف أهجو رجلا حَسِيباً لا يُنْكَر بيته ، كريماً لا ينقطع عطاؤه ، فَيْصلًا[2] لا يُطْعَن على رأيه ، شجاعاً لا يُضَام نزيلُه ، محسناً لا أرى فى بيتى شيئاً إلا مِنْ فضله !

فسمع بذلك بشر بن أبى خازم ـ وكان شاعراً ـ فرغب فى البَذْل ؛ وأخذ الإبل وهجاه ، وذكر أمّه سُعْدى . فسمع أوس بذلك ؛ فوجّه فى طلبه، فهرب وترك الإبل ؛ فأتوا بها إلى أوس بن حارثة ، فأخذها وشدّ فى طلبه ؛ وجعل بشر ابن أبى خازم يطوف فى أحياء العرب يلتمس عزيزاً يجيره على أوس ، وكل مَن قصده يقول: قد أجَرْتُك إلا من أوس بن حارثة ، فإنى لا أقدر أن أُجير عليه ـ وكان أوس قد بثّ عليه العيون؛ فرآه بعضُ من كان يرصُده ، فقبض عليه ، وأتى به إلى أوس ، فلما مَثُل بين يديه قال له : ويلك ! أتذكر أمى وليس فى عصرنا مثلها ؟

(١) هو الحطيئة . (٢) فيصل ترحاكم .

قال : قد كان ذلك أيها الأمير ؟ فقال : والله لأقتلنّك قتلةً تحيا بها سُعْدَى - يعنى أمه .

ثم دخل أوس إلى أمه سُعْدى ، وقال : قد أتيتُك بالشاعر الذى هجاك ، وقد آليتُ لأقتلنّه قِتلةً تحيين بها ! قالت : يا بنىّ ؛ أو خيرٌ من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قالت : إنه لم يَجِدْ ناصراً منك ، ولا مُجيراً عليك ، وإنا قوم لا نرى فى اصطناع المعروف من بأس ، فبحَقِّى عليك إلا أطلقتَه ، ورددتَ عليه إبلَه ، وأعطيتَه من مالك مثل ذلك ، ومِنْ مالى مثلَه ، وأَرجِعه إلى أهله سالماً ؛ فإنهم أَيِسوا[1] منه !

فخرج له أوسٌ ، وقال : ما تقول أنى فاعل بك ؟ قال : تَقْتُلُنى لا محالة ! قال : أفتستحقُّ ذلك ؟ قال : نعم ؟ قال : إن سُعْدى التى هجوتَها قد أشارت بكذا وكذا ، وأمر بحلِّ كِتافه[2] ، وقال له : انصرف إلى أهلك سالما ، وخُذْ ما أمرْتُ لك به!

فرفع بِشْر يده إلى السماء وقال : اللهم أنت الشاهد علىّ ألّا أعود إلى شعرٍ إلا أن يكون مَدْحاً فى أوسِ بن حارثة .

---

(١) أيسوا : يئسوا . (٢) الكتاف : هو حبل يشد به .